أنا الشعب

للأستاذ
محمد فريد أبو حديد

يقدم فتحي الأبياري

من أشق الموضوعات الفنية على الفنان القصاص ، ان يتناول في عمله الفني موضوعا وطنيا - والسبب في ذلك أن المادة الوطنية تحتاج الى بقعة تامة من الفنان عند صياغتها في قالب فني أصيل ، بحيث لا يخرج الينا النص الادبي وخاصة القصة عبارة عن مواقف وخط وارشـــاد مملة ، أو أحـــداث لا تتمشى مع أصول المنطق والاساليب الفنية في القصة - وبالرغم من تلك العوائق ، **اتخذ الاستاذ محمد فريد أبو حديد الفائز بجائزة الدولة التقديرية هذا العام ، موضـــوع قصته الطويلة «انا الشعب»** من اعماق القاعدة السفلى - والطبقة المتوسطة - وطبقة الاســتقراطية المتعرضة - واتخذ رمزا للطبقة المكافحة هو « سيد افندى رهيو » وهو بطل القصة فكيف استطاع الاديب الكبير ان يفلت من مصيدة البعد عن واقعية العمل الفني في القصة الوطنية - والى اى حد كان موفقا ؟

وتعتبر هذه القصة بالذات من احب الاعمال القصصية لدى الاستاذ ابو حديد ، ويرجع السبب في ذلك كمـــا يقول ، انني كتبتها قبل الثورة في سنة ١٩٥١ على التحديد - ثم نشرت هذه الرواية في ظل الثورة ، وقرأها الناس - فاحســست انني شاركت في حركة « الضمير » العامة ، وصنعت حجرا في البناء الذى كنا نحلم بأن يوجد - **التفاف الشعب حول الزعيم** ، اذن فقد كانت القصة **ارهاصا بالثورة** .. ولكن ما هو الاسلوب الذى انتهجه الاستاذ محمد فريد أبو حديد في البنـاء الفني لقصته « أنا الشعب » ؟

وضع لنا المؤلف شخصية « سيد رهير » ليحكي لنـا احداث القصة بطريقة الترجمة الذاتية في اربعة وثلاثين فصلا - ومن خلال الفصول العشرة الأولى قدم لنـا « سيد رهير » نفسه ، واحداث طفولته - فقد توفي والده عندما كان على وشك دخول امتحان شهادة الثقافة العامة - وأثرت حادثة وفاة الاب على الاسرة ، مما دفع سيد الى أن يبحث عن اى عمل ليساعد أمه - ويحتك « سيد » بالحياة العامة ، وتكتشف له معادن الناس - وخبايا المجتمع - فعندما اراد ان يلتحق بوظيفة في مجلس المديريه - كان عليه ان يدفع خمسة جنيهات كرشوة - فلم يســـتطع ، وعندئذ ذهبت به أمه الى أسرة « السيد احمد حلال » صاحب المحلج ، والذى كان جارا لأسرة سيد في يوم ما ، والحقه السيد حلال - بالعمل عنده في المحلج ، ليرد بالات القطن ، ويكتب الارقام عليها ،

وشخصية « سيد رهير » من الشخصيات الـــدائمة ، وهي الشخصية الوحيدة الرئيســـية التي حشد لها الاستاذ محمد فريد أبو حديد كل الاحداث والشخصيات

الثانوية المسطحة لكى تلقى الاضـــواء على تلك الشخصية التى ترمز الى الشعب ، « وسيد زهير » مر بمراحل ثلاث حـــلال فصول القصـــة ، المرحلة الاولى ـ مرحلة الطفولة والصبا ، والثانية بدأ عندما ترك دمنهور وسافر الى القـــاهرة ليشترك فى مقاومة الاوضاع المقلوبة ، ومساندة الحركات الشعبية المطـــالبة ، بتذويب الفوارق الاجتماعية ، واعادة الحقوق المغتصبة من الشعب الكادح ـ والمرحلة الثالثة تبدأ منذ دخوله السجن ، وصراعه ونضاله بعد الافراج عنه فى سبيل المبدأ الذى اعتنقه .

ففى المرحلة الاولى وفق الكاتب ، فى ابراز كل النواحى النفسية والاجتماعية لشخصية «سيد زهير» ، فهو مكافح ، طموح ، له نزعة أدبية ، فقد كتب مقالة ونشرها فى جريدة «البراس» بدمنهور ، والف مسرحية لمثلها فرقة الرفاق ، ولكنها فشلت بسببه ، واستطاعت بعض الشخصيات الفرعية المسطحة مثل شخصية «حمادة الاصفر» الصبى الشرير ، وصديقه عبد الحميد وأمه تلك الشخصية السلبية التى لم تقم بدور ايجابى تأثيرى على «سيد» أما « السيد أحمد جلال » ، فهى الشخصية التى كان لها أثر عميق فى نفسية سيد الصافية ـ فقد الفه تمحلجه ، وكان يرسله الى بيته حيث التقى «سيد» «بمنى» ابنة السيد جلال ، فاحبها ، لكى حتى أن يبوح لها بحبه طوال القصة ، بسبب الرواسب الطبقية فى أعمـــاق نفسه ، كيف يمكن له ، وهو الذى يعمل وراثا عند الاب فى المحلج ، ان يتطاول ويســـمح لنفسه أن يطلب يد « منى » ابنة الاسياد !!!

وكانت شخصية «مصطفى عجوه» المثقفة الدساسة سببا فى فصل « سيد » من عمله فى المحلج ، وتألم « سيد (لأنه طرد ظلما بسبب الحسد والنفاق ، ولم يحزن على شىء حزنه على فراقه لمنى ، وعدم رؤيتها بعد ذلك لأنه قطع علاقته بوالدها ، ثم اتجه سيد الى ميدان التجارة ، ونجح فيه

وحل موسم الانتخابات ، فكرس «سيد» وقته وماله هو وصديقه «عبد الحميد» لنصرة « العجمى » الذى كان زميلا له أيام الدراسة والذى رشح نفسه ضد « السيد جلال » الانتهازى ، والباشا محمد حلف ولكن القوى الاستغلالية اكتسحت المعركة ، بأموالها ، ونفوذها ، وباستغلالها لنواحى الضعف فى نفوس الطبقة الكادحة ، فقد تمكن السيد جلال من ازاحة «سيد» من ميدان المعركة بأن استغل نفوذه لدى الشرطة، وتم القبض على « سيد » بتهمة العيب فى الذات الملكية ، تلك التهمة التى كانت السوط القاسى فى يد الطبقة الارستقراطية ، والمستحيل فى أعناقهم ، لضرب أى فرد يتشدق بالكرامة ، وبحقوق الشعب ، وتمت خطبة «منى» لابن محمد باشا حلف الذى تنازل عن الترشيح لصهره الجديد « السيد أحمد جـــلال » ، والانتصار الثالث هو تنازل «العجمى» عن الترشيح لقاء تعويض كبير دفعه اليه السيد جلال .

كل هذا كان بالنسبة « لسيد » صدمة كبيرة ، وخاصة عنـــدما علم أن الذى تسبب فى اعتقاله ، والافراج عنه كان السيد جلال ـ ، وقد أخبره صديقه عبد الحميد بكل ذلك ، مما جعل «سيد» يحدث نفسه بصوت عال قائلا ص ١٦٨ **«انها مخزاة ان نعيش فى مجتمع كهذا ، الرجال عبيد يسعون بالسياط أو يشترون بالمال ، والنساء**

ايضا يعرضون في أسواق الرقيق كما كانت الجواري تشترى . الذهب هو المعبود . ومن أجل الذهب يبيع الجميع كل ما عندهم حتى الحرية ، والكرامة ، وحتى الحب .. هي معركة أكبر خطرا ولا تتسع لها دمنهور » .

وعندئذ سلم عبد الحميد حطابا الى (سيد) من صديقه « على مختار » رئيس تحرير جريدة «بريد الاحرار» في القاهرة — وجاء في الخطاب تعيين «سيد» محررا في « بريد الاحرار » بمرتب شهرى .. (عشرون جنيها !!!) عدا أجر القصص — والقصه الواحدة بخمسة جنيهات .

والذى يؤخذ على المرحلة الاولى من شخصية « سيد » هو الحشو الذى لاطائل له في كثير من المواقف والاحداث وأن المؤلف لم يكن موفقا في المجال القصصى وخاصة عندما اراد ان ينقل « سيد » الى عالم الصحافة . فليس من المعقول أبدا أن تطلب جريدة تصدر في القاهرة تعيين شاب من دمنهور مثلا يعمل محررا فيها لانه قد نشر فيها قصة . خاصة وأن « سيد زهير » لم يحصل الا على الشهادة التوجيهية . ويكفى ان يعرف المؤلف أن صحافتنا الآن بما وصلت اليه من تطور وازدهار ، لاتعين المتخرجين في قسم الصحافة والذين يحملون مؤهلا عاليا الا بعد مرور ستة أشهر تحت التمرين مجانا — ثم بمكافاة قدرها خمسة جنيهات . واذا تم تعيينهم ، فان الجريدة تدفع لهم مرتبا لايزيد عن العشرين جنيها حسب القانون الجديد الذى لم يظهر الا في العام الماضى فقط !!!

والشيء الآخر أن أية جريدة ، لا تدفع لمحرر عندما تنشر له قصة نشرها فيهـــا ، وانما تستكتب بعض الكتاب المشهورين لكى تضمن قراء جددا يشترون الجريدة . ونقطة أخرى هامة ، ان المؤلف نسى ان الصحفى الذى يكتب بابا ، او ركنا يوميا في أية جريدة ، لابد أن يكون قد مضى عليه في الصحافة أعواما طويلة ، بحيث تفرد له الجريدة مساحة معينة ، ليعبر فيها عن رأيه ، وعن رأى الجريدة . خاصة وان جريدة مثل « بريد الاحرار » تلقى معارضة شديدة ، وحربا شعواء من الطبقة الارستقراطية، واصـــحاب الاستغلال — فلم يكن معقولا « لعلى مختار رئيس التحرير — أن يعهد « لسيد زهير » كما جاء في القصة تحرير باب ثابت . أدى في نهاية الامر الى مصادره الجريدة . واعتقال « على مختار وسيد زهير » —

وقد تعرضت لهذه النقطة بالذات ، لانها تعتبر المرحلة الثانية الهـــامة في شخصية « سيد » وبالتالى — في شخصية الشعب المهضوم الحـــقوق — فقد اراد الكاتب أن يعبر عن الثورة، وعن الطليان في صدور الشعب المسكين — بتلك الطريقة، التى يكشف عنها في الحوار الذى دار بين سيد وصديقه عبد الحميد ، عن فلسفة الثورة .. التى يجب غرسها في الصدور عن طريق الادب والكتابة ، والتعبير عن كل هذا بالكلمة .

« فيقول له صاحبه »

— كأنك تريد الثورة .

فعلت في عناد : اريد ان ارضى بهذا السؤال ؟ نعم اريد الثورة ولا شيء غير الثورة .

هز رأسه قائلا : انا احالفك هنا .. الثورة الشعبية تدمر ولا تعمر ولو فرضنا أن الثورة نجحت فانها لن تجد الشعب الذي يحسن الاستفادة منها . قد نرضى عن الثورة التي تدمر اذا حملنا من ورائها خيرا ، ولكن الثورة التي لايستفاد منها لاتكون الا شرا محضا .

فعلت في عناد وماذا يمنع من أن نستفيد من الثورة ؟ لقد قرأت كثيرا عن ثورات التاريخ وعلمت من ذلك حقيقة واحدة خالدة نحن جميعا من البشر وفينا جميعا عناصر الخير والشر ، وفينا عناصر القوة والضعف . في نفوسنا الانانية والتضحية وفينا الشجاعة والجبن ، وفينا العدل والطغيان ، نحن نطوي في الوقت عينه على السماحة واللؤم وعلى السمو والانحطاط . من الممكن ان نتغلب علينا عناصر الخير العسرة بالقوة التي تثير هذه العناصر أو تلك .

فقال في هدوء : عظيم ياسيدي ، ولكن هل نسيت انك تجعل كل الامور متوقفة على شرط غير موجود ؟ أين هذا المحرك الذي يبعث عناصر الخير ؟ .. هـــذا المحرك لايوجد له الا في داخلنا ، وعلينا ان نخلقه في الناس بالادب والتربية .

فعلت في عناد : المسألة مثل الحلقة المفرغة ، لن نستطيع ان نصلح داخلنا ما دامت السيادة في أيدي الانذال والاشرار والسفلة ، ولانستطيع ان نصلح أمورنا الا اذا أصلحنا داخلنا ، حلقة مفرغة لانعرف أين طرفاها .

ليس أمامنا الا أن نثور على هؤلاء السادة المفسدين لنخلع عنا برغم ونجعل في محلهم من يثير في الناس عناصر الخير — نحن الشعب .. نحن الصيد المحظوظ — علينا ان نثور اذا شئنا أن نحيى أنفسنا من العار ، ونحمي ظهورنا من ضرب السياط — الثورة — ولاشيء غير الثورة !!!

وشيء آخر يدل على الاقتدار ، وهو كيف يصبح على مختار «سيد رهيره» مبلغ مائة جنيه ليشتري بها بدلة ولوازمها لحضور حفلة السادة المفسدين ليكتب عنها تحقيقا ان هذا تم ولن يحدث في عالم الصحافة !!!

***

تلك كانت بعض المآخذ على المرحلة الاولى من شخصية «سيد رهيره» . أما المرحلة الثانية ، فقد بدأها في العمل في جريدة «بريد الاحرار» كاشفا فساد الطبقة المستغلة التي تمتص دماء الشعب ، لتنعم هي بالرفاهية واللذة الماجنة . وذلك في كتاباته وتحقيقاته المثيرة . ولكن كيف يصبح «سيد رهيره» كاتبا صحفيا معروفا ، يعطيه «علي مختار» مائة جنيه ليشتري بها بدلة ، ثم يعيش في غرفة فوق السطح بمنزل «بولاق» ، حيث كانت تخدمه بنت صاحب المنزل «فطومة» ويستطرد المؤلف في بعض مشاهد ومواقف بين «فطومة» و «سيد» لا تؤثر على مجرى الاحداث في شيء . ولو حذفنا

ن تلك الشاهد والمواقف ... لما اعتبر بناء القصة فيما بعد شعره ... ولكنه استطراد وحشو، يلحظه اي ناقد على الفور عند قراءته للقصة ...

ويتعاون علي مختار مع سيد ... في كشف النقاب عن عفونة خبايا المجتمع اللاهي، ولكن سرعان ، ما تصادر احدى المسئولة اعداد الجريدة وتعتقل سيد و رئيس التحرير ، وفي تلك الاثناء يموت السيد حلال ، مباشرا بصدمة نفسية أصابته بسبب الفضيحة ، فقد كان يعاشر احدى السافرات في دمنهور معاشرة شرعية بعقد زواج عرفي ... وقد ولدت منه ولدا ، ثم استغل حمادة الاصغر هذا السر في ابتزاز الاموال من السيد حلال الذي لم يحتمل آثر الصدمة ... وعندما يعلم «سيد رهيد» بتلك الفضيحة تتملكه الشهامة ويشتري قسيمة الزواج العرفي بمبلغ مائة جنيه ليعيد شرف السيد حلال بعد وفاته ... وقد فعل كل ذلك بسبب حبه الدفين لمنى ...

وانتهى نضال «سيد» وكفاحه المستمر في الجريدة الى السجن، حيث قاسى مرارته ثم خرج منه ، ليواصل النضال ، ولكنه فوجئ، بمقتور عريمة «علي مختار» لان اليأس تسرب الى قلبه ... ويسأل «علي مختار سيد» عن سبب مواصلة النضال ، فيجيبه الآخر قائلا ،

ـ من اجل من ؟ .. من أجل أنفسنا من أجلك ومن أجلي ومن أجل كل من يعيش ويتألم .. من أجل أبنائنا الذين سوف يتألمون (ص٣٤٨)

ولكن «علي مختار» يصر على مغادرة البلد ، لانه لا يستطيع مواجهة كل القوى الطاغية التي استطاعت ان تعتقلهما وتدينهما الوان العذاب ، ولكن «سيد» يقول له

ـ بل ماذا تصنع في غير هنا ؟ .. هنا بلادنا ولا مفر لنا من ان تكون هي بلادنا اي بلد نقبلك كأحد أبنائه ؟ ...

أتفضلك انجلترا او فرنسا ... او أمريكا او غيرها لتكون ابنا من ابنائها ؟ .. لن تكون هناك الا غريبا تقضي أيامك في قراغ ، أم تريد أن تذهب الى بلد شرقي يمكن ان يكون اقرب اليك ؟اين ؟ ... تعيش في تركيا ؟ في سوريا ؟ لعراق ؟ ... في السودان ؟ تعيش هناك على هامش الحياة واهل تلك البلاد يجاهدون كما نجاهد نحن؟ هل ترضى ان تكون غريبا بين قوم يجاهدون من أجل أنفسهم وانت ساكن ؟ ... أم تريد أن تشارك هؤلاء في جهادهم وتتخلى عن الجهاد هنا ؟

وبعد مناقشات جدلية ، تتدخل فيها الاحداث في البلد ، يتحمل «علي مختار» ويعاود الكفاح مرة أخرى ، وقد رمز المؤلف لعلي مختار ، تلك الفئة من الشعب التي تملكها اليأس ، واستكانت بعد ان ران بطش الطبقة الفاسدة ،

ووقعت المفاجأة ، عقد فوجئ الناس بأن القاهرة تحترق ، ثم اشتراك سيد في جمعية «شبان الفداء» ، وهي رمز يحيل الى أنه كان ارهابيا ، بجماعة الضباط الاحرار ثم ظهرت حوادث الاسلحة الفاسدة ، وسقوط الحكومات في أسابيع قليلة ، وتساءل الشعب أو بمعنى اصح تساءل «سيد رهيد» **اين تنتهي هذه المهازل التي يمثلها صغار في أسماء منفوخة ..الى اين تصير ؟ ولم يكن لهذا السؤال الا رد واحد .. ثورة أخرى** مثل التي وقعت في ٢٦ يناير ، ولم لا ؟ .. غير اني كنت أعود دائما فاقول .. وماذا

يجني من مثل تلك الثورة ؟ .. وماذا يجني الجسم العليل الذى تسممت دماؤه من انفجار جلده بالقروح ذات الصديد ؟ ..

وعندئذ يكشف المؤلف عن نفسه ، فاختلط على الامر ، هل الذى كتب تلك القصة هو «سيد زهير» .. أم محمد فريد أبو حديد اذ كتب يقول :

« والآن تقترب نهاية القصة على فجاءة كما تنتهي القصص الرديئة ، وان كنت أعتذر عن هذه النهاية الفاجئة بأنني لم أتعمدها لأن المقادير هي التي جعلتها تنتهي فجأة .. »

فقد اتفق وقوع حادثين في وقت واحد ، بل في ساعة واحدة ، كانت فيها نهاية القصة . فاما الحادث الاول فهو انني كنت جالسا الى جانب المذياع استمع الى القرآن الكريم والى اخبار اليوم الجديد ، فاذا صوت ينطلق معلنا قيام ثورة في الجيش . واما الحادث الثاني فانني ما كدت أعود الى شقتي المتواضعة في باب اللوق ، حتى وجدت برقية تنتظرني ، تم الاتفاق وفي انتظارك اليوم حسب الاتفاق «سيد» .

***

لقد كانت حبكة القصة ، في الجودة والاتقان بحيث تجعل القارىء في أعماق الأحداث والمواقف . ولكن بعض الاستطرادات والمواقف الجانبية التي يمكن بسهولة أن تستغني عنها ، اضعفت من روعة التماسك الفني للقصة ككل . اما الحوار ، فجاء على لسان الشخصيات سلسا ، رائقا . وابتعد عن الالفاظ المتقعرة ، بل لقد أورد المؤلف بعض عبارات في الحوار تبدو للوهلة الاولى عامية ، ولكنها في حقيقة الامر من اللغة الفصحى القريبة من العامية ، وقد استعمل ذلك الحوار عن لسان « أم سيد » «وطومة» «وحمادة الاصغر» ..

وتعتبر قصة « أنا الشعب » من معالم أدبنا الارهاصي بالثورة . صور فيها الكاتب ، جميع نواحي المجتمع المتعفن من رشوة ، وفساد في الحكم ، واضطهاد للرأي الحر ، واستغلال للسلطة وضياع الكرامة ، والشخصية في سبيل الذهب . من الحقير مثل «حمادة الاصغر» الى السيد جلال . هذا يبيع نفسه من أجل القرش ، وذاك يبيع ابنه ليكسب معركة انتخابية . ونجح الكاتب في التعبير بصدق عن المواقف والمشاهد التي احتوتها القصة . لتتبلور أخيرا . في الصرخة المدوية التي أطلقها «سيد زهير» وهو في السجن .. « أنا الشعب » . .. «أنا الشعب » .